الفصل الثالث

إنقاذ دنكرك

obeikandl.com

obeikandl.com

منذ العشرين من أيار، بدأ حشد البواخر والقطع الصغيرة تحت قيادة الأميرال رامسي قائد موقع ووفر، وفي مساء السادس والعشرين من الشهر نفسه أعلنت الأميرالية ابتداء عملية «دينامو» ووصلت أول قوة جلت عن دنكرك إلى الوطن، وبعد أن فقدنا ميناء بولون وكاليه، لم يبق عندنا سوى السواحل الرملية القريبة من حدود بلجيكا وما تبقى من ميناء دنكرك، وقد خيل لنا أن أكبر عدد يمكننا إنقاذه في ذلك الوقت لن يتعدى الـ ٤٥ ألف رجل خلال يومين، وقد اتخذت إجراءات الطوارئ للحصول على أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام «بمهمات خاصة» وهذا يعني نقل نصف قوات الجملة البريطانية، وكان عمل السفن الصغيرة يقتصر على الشواطئ الرملية، بينما تعمل بقية السفن الكبيرة في ميناء دنكرك نفسه، وقام ضباط الأميرالية بالبحث عن الزوارق الصغيرة في جميع الأحواض القائمة بين تيدلنغتون وبراتيلينغسي، فتمكنوا من جمع أربعين زورقًا بخاريًا ولنشا، كما جمعت كافة القوارب واليخوت والزوارق وزوارق صيد السمك والمواعين وكل ما كان على شواطئ البحر من وسائل النقل، وفي ليل السابع والعشرين من أيار اندفع سيل هائل من هذه القطع الصغيرة نحو شواطئ دنكرك لإنقاذ جيشنا الحبيب.

وبعد أن تأكد للأميرالية أن الأمر لم يعد سريًا أطلقت العنان لكل حركة من حركات الإنقاذ وسمحت لكل من يملك قاربًا أو زورقًا مهما كان نوعه أن يبحر إلى دنكرك، وعمل الجميع في هذا الجو الرائع من الحماس الوطني على إنقاذ ما لا يقل عن مائة ألف جندي من جنود الوطن من الشواطئ إلى السفن الرأسية في عرض البحر، تحت وابل من الغارات الجوية العنيفة، والقصف الذي لم ينقطع من طائرات العدو.

في هذه الأثناء، كانت القوات الإضافية تعزز المواقع الأمامية حول دنكرك وبدأت النجدات تصل إلى خطوط الدفاع الأمامية، وكان من المقرر أن تشترك ثلاثة ألوية في عملية الدفاع، لكن الفرنسيين حملوا عنا القسم الأكبر من مهمة الدفاع عن الجبهة، فقررنا الاكتفاء بلواءين فقط، وكان الألمان يطاردون جنودنا أثناء انسحابهم فينشب القتال المرير بين جنودنا ومطارديهم خاصة حول الجناحين في نيوبورت وبيرغر، ومع استمرار الجلاء كان العدد ينخفض وتتقلص الخطوط الدفاعية، ووقفت الألوف من الجنود موقف الأبطال أمام

القصف الجوي المستمر مدة أربعة أو خمسة أيام مريرة ، وثبت أن مزاعم هتلر حول منع عملية الانسحاب بواسطة سلاحه الجوي لم تكن صحيحة بالإضافة إلى أنها كانت غير معقولة وفاشلة ، فقد تبين أن القصف الجوي المستمر على حشودنا الكبيرة على الشواطئ لم يلحق بهم أضرارًا كبيرة ، وفي البداية عندما بدأت أولى الغارات الصاعقة ، ذهل جنودنا من أن تلك الغارة لم تقتل أيًا منهم تقريبًا ، فقد كانت تلك الشواطئ صخرية لتغير الوضع وأضحت النتائج مهلكة ، إلا أن الشواطئ الرملية بطبيعتها جعلت من نفسها مكانًا أمينًا يقيهم شر الغارات الوحشية .

وقد أذهل سلاح طيراننا العدو لشدة بأسه ونشاطه ، فقد كانت المعارك الجوية التي دارت في سماء دنكرك تجربة للكفاءات الجوية البريطانية والألمانية ، واحتفظت قيادتنا الجوية بطائرات مقاتلة ملأت سماء المعركة بصورة مستديمة ، باذلة جهدًا عظيمًا في مجابهة العدو الذي يفوقها في العدد، وكانت طائراتنا تتغلب على الطائرات العدوة بسرعة مذهلة وتنزل بها خسائر فادحة وتطردها خارج سماء المعركة ، وقد استمرت هذه المعارك الهائلة يومًا بعد يوم إلى أن حقق سلاحنا الجوي النصر الكبير ، وما إن تشاهد الطائرات العدوة حتى تهاجمها أسرابنا وتلتحم معها في معارك ضاوية وتسقط منها العشرات ، وهكذا استخدمنا في هذه المعركة العنيفة كل ما نملكه من طائرات احتياطية في الوطن ، وكان الطيار البريطاني يقوم بأكثر من أربع غارات يوميًا ، ولذلك حصلنا على نتائج واضحة ومرضية . فقد كان العدو المتفوق علينا ينهزم أمامنا أو يقتل وينخاذل ويضعف، لقد كانت المعركة فاصلة ، ولم يكن جنودنا على السواحل يشاهدون هذا الصراع الهائل في الجو، فالمعارك كانت مشتعلة بعيدًا عن أنظارهم ، وكانوا يجهلون ما يفعله نسورنا في الجو، وكل ما يشعرون به هو هذه القنابل المنهمرة على الشواطئ التي يرسلها العدو الذي يتمكن من الإفلات والوصول إلى الشواطئ ، ولسوء الحظ ، سيطر شعور من الغضب والنقمة على سلاحنا الجوي البطل لأن الجنود لم يشاهدوه في سماء المعركة ، ولم يعلموا شيئًا عن الخسائر الهائلة التي كان يلحقها بالعدو ، وقد وصل بعض الجنود إلى دوفر وموانئ التيمز وهم يشتمون زملاءهم الطيارين، جهلاً منهم لتلك الحقيقة المشرفة والبطولة النادرة ، لذلك قررت أن أذيع تلك الحقائق في البرلمان .

أما في البحر فقد ساد النظام الكامل على ظهر السفن والبواخر ، وكان البحر هائجًا مما ساعد على استمرار الهدوء والنظام ، وراحت الزوارق تعمل بهمة لتنقل الرجال من الشواطئ إلى البواخر غير عابئة بالغارات الرهيبة التي كانت تمطرهم بوابل من قنابلها المميتة ، وكان عدد هذه الزوارق الكبير هو وحده الذي تحدي الغارات الجوية ، وثبت أن « أسطول البعوض» الجبار لا يغرق .

❖ ❖ ❖

وفي الحادي والثلاثين من شهر أيار بلغ القتال في دنكرك ذروته ، وقد نقل خلال يومين فقط ما يزيد عن ١٣٢ ألف رجل ، انتقل معظمهم من الشاطئ في زوارق صغيرة تحت وابل من القنابل بل والمدافع ، وقد بذلت القاذفات المعادية أكبر مجهود لها في اليوم من حزيران ، وكانت تركز غاراتها أثناء عودة مقاتلاتنا للتزود بالوقود ، وقد خسرنا عددًا ضخمًا من بواخرنا نتيجة لتلك الغارات ، وبلغ مجموعها مجموع ما غرق في الأسبوع الماضي بكامله ، وبلغت خسائرنا في ذلك اليوم إحدى وثلاثين سفينة بالإضافة إلى إحدى عشرة سفينة أخرى أصيبت إصابات طفيفة، وزاد العدو من ضغطه وهو يأمل في اختراق خطوط دفاعنا إلا أنه لم يتمكن بفضل مقاومة قواتنا الحليفة الخلفية الرائعة .

ومضت المرحلة النهائية لعملية الجلاء بكثير من الدقة والمهارة ، وأصبح بإمكاننا رسم الخطط سلفًا ، بدلاً من اضطرارنا إلى الاعتماد على الظروف والأحداث التي كانت تتغير في كل لحظة ، وعندما حل فجر اليوم الثاني من حزيران لم يبق في ضواحي دنكرك سوى أربعة آلاف بريطاني ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات و ١٢ مدفعًا مضادًا للدبابات ، ظلوا بالاشتراك مع القوات الفرنسية التي كانت لا تزال تحافظ على خط الدفاع الرئيسي وقرر الأميرال رامسي النزول دفعة واحدة إلى الميناء في تلك الليلة ، إذ لم يعد ممكنًا الانسحاب إلا أثناء الليل ، وأبحرت من إنكلترا في هذه الليلة أربع وأربعون باخرة بالإضافة إلى الزوارق الصغيرة المحتشدة ، كما اشترك في هذه العملية أربعون سفينة أخرى فرنسية بلجيكية ، وتم نقل قوة المؤخرة البريطانية كلها قبل حلول منتصف الليل .

لكن هذه لم تكن النهاية في دنكرك ، فقد كنا على أتم الاستعداد لنقل المزيد من القوات الفرنسية الموجودة في الميناء ، لكن عندما اضطرت بواخرنا إلى الانسحاب في تلك الليلة ، كان على الشواطئ عدد كبير من الجنود الفرنسيين لا يزالون مشتبكين مع العدو في قتال عنيف، وكان علينا أن نحاول مرة أخرى بالرغم من الإعياء المسيطر على بحارتنا من جراء الجهد الهائل الذي بذلوه دون توقف خلال الأيام الماضية دون أن يذوقوا طعمًا للراحة والنوم، وفي اليوم الرابع من حزيران أنزلنا في إنكلترا (٢٦١٧٥) فرنسيًا كان بينهم واحد وعشرون ألفًا في سفن بريطانية ، أما الباقون والبالغ عددهم بضعة ألوف ، فقد واصلوا القتال عندما وصل العدو إلى ضواحي البلدة بعد أن بلغ بالجنود الإعياء واحتملوا أقسى ما يمكن للطاقة البشرية أن تحتمله بحيث تمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم ، فسقطوا أسرى في أيدي الأعداء .

وأعلنت الأميرالية أخيرًا في تمام الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر يوم الرابع من شهر حزيران انتهاء عملية «دينامو» ، وقد تم نقل (٣٣٨٠٠٠) جندي بريطاني وحليف إلى الجزر البريطانية .

❖ ❖ ❖